زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ
لَمْ يُحِبَّ حُبَّهُ أَحَدٌ!!

وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يُودع جيش الإسلام الذاهب لملاقاة الروم فى غزوة «مُؤْتَة» ويعلن أسماء أمراء الجيش الثلاثة، قائلا:

«عليكُم زيدُ بن حارثة.. فإن أُصيب زيد، فجعفر بن أبى طالب.. فإن أُصيب جعفر، فعبد الله بن رَوَاحَة».

فمن هو «زيد بن حارثة»..؟؟

من هذا الذى حمل دون سواه لقب «الحبّ».. حِبّ رسول الله..؟

أما مَظْهَرُه وشكله، فكان كما وصفه الرُّواة والمؤرخون:

«قصير، آدَمُ - أى أسمر - شديد الأُدْمَة، فى أنفه فَطَس»..
وأمَّا نبؤه، فعظيم جِدٌّ عظيم..!!

* * *

أعدَّ «حارثة» أبو «زيد» الراحلة والمتاع لزوجته «سُعْدى» التى كانت تزْمع زيارة أهلها فى بنى مَعْن.

وخرج يودع زوجته التى كانت تحمل بين يديها طفلها الصغير «زيد بن حارثة» وكلما هَمَّ أن يَسْتَوْدِعَها القافلة التى خرجت الزوجة فى صحبتها ويعود هو إلى داره وعمله، دفعه حنانٌ خَفِىٌّ وعجيب لمواصلة السير مع زوجته وولده..

لكنَّ الشقَّةَ بَعُدَتْ، والقافِلَةُ أَغَذَّت سيرها، وآن لحارثة أن يودع الوليد وَأُمَّه، ويعود..

وهكذا وَدَّعها ودموعه تسيل.. ووقف طويلا مُسَمرًا فى مكانه حتى غابا عن بصره، وأحسَّ كأنَّ قلبه لم يَعُدْ فى مكانه.. كأنَّه رحل مع الرَّاحلين..!!

* * *

ومكثت «سُعْدى» فى قومها ما شاء الله لها أن تمكُث..

وذات يوم فوجئ الحىُّ - حىُّ بنى مَعْن - بإحدى القبائل

المناوئة له تُغير عليه، وتنزل الهزيمة ببنى مَعْن، ثم تحمل فيما حملت من الأسرى ذلك الطفل اليَفَع «زيد بن حارثة»..

وعادت الأم إلى زوجها وحيدة.

ولم يكد «حارثة» يعرف النبأ حتى خَرَّ صَعِقًا، وحمل عصاه على كاهله، ومضى يجوب الديار، ويقطع الصحارى، ويُسَائل القبائل والقوافل عن ولده وحبَّة قلبه زيد، مُسَليًا نفسه، وحاديًا ناقته بهذا الشِّعر الذى راح ينشده من بديهته ومن مآقيه:

بكيتُ على زيد ولم أَدْرِ ما فعل
أحيٌّ فَيُرْجَى؟ أم أتى دونه الأجَلْ
فوالله ما أَدْرِى، وإنى لَسَائِلٌ
أَغَالَك بُعْدِى السَّهْلُ؟ أم غَالَك الْجَبَلْ
تُذَكِّرُنِيهِ الشمسُ عند طلوعها
وتَعْرِض ذِكراهُ إذا غَرْبُهَا أَفَلْ
وإن هَبَّتِ الأرواح هَيَّجْنَ ذِكره
فياطولَ ماحُزنى عليه، ويا وَجَلْ

* * *

كان الرِّق فى ذلك الزمان البعيد يفرض نفسه كظرف

اجتماعى يحاول أن يكون ضرورة..

كان كذلك فى «أثينا»، حتى فى أزهى عصور حريتها ورُقِيها... وكان كذلك فى «روما»...

وفى العالم القديم كله.. وبالتالى فى «جزيرة العرب» أيضًا...

وعندما اختطفت القبيلة المغيرة عَلَى «بنى مُعْن» نَصْرَها، وعادت حامِلةً أسراها، ذهبت إلى «سوق عكاظ» التى كانت منعقدة آنئذ، وباعوا الأسرى...

ووقع الطفل «زيد» فى يد «حكيم بن حزام» الذى وهبه بعد أن اشتراه لعمته «خديجة».

وكانت خديجة رضى الله عنها، قد صارت زوجة لمحمد بن عبدالله، الذى لم يكن الوحى قد جاءه بعد. بَيْد أنه كان يحمل كل الصفات العظيمة التى أَهَّلَتْه بها الأقدار ليكون غدًا من المرسلين..

ووهَبت خديجة بدورها خادمها «زيدًا» لزوجها «رسول الله» فتقبله مسرورًا وأعْتَقَه من فَوْرِه، وراح يمنحه مَن نفسه العظيمة ومن قلبه الكبير كل عطف ورعاية..

وفى أحد مواسم الحج. التقى نَفَر من حَىِّ «حارثة» بزيد فى مكة. ونَقَلوا إليه لوْعة والديه. وحملهم «زيد» سلامه وحنانه وشوقه

لأمه وأبيه. وقال للحُجَّاج من قومه:

«أخبروا أبى أنى هنا مع أكرم والد»..

ولم يكد والد زيد يعلم مستقر ولده حتى أغذ السير إليه.. ومعه أخوه..

وفى مكة مضيا يسألان عن «الأمين محمد».. ولما لقياه قالا له:

«يا بن عبد المطلب..

«يا بن سَيِّد قومه. أنتم أهل حرَم، تفكُّون العانى، وتُطْعمون الأسير.. جئناك فى ولَدِنَا، فامْنُنْ علينا وأحسِنْ فى فدائه»..

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم تعلق زيد به. وكان فى نفس الوقت يُقدِّر حق أبيه فيه..

هنالك قال لحارثة:

«ادعوا زيدًا، وخَيِّرُوه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فِدَاء.. وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختارُ عَلَى من اختارنى فداء»..!!

وتهلّل وجهُ «حارثة» الذى لم يكُن يتوقع كل هذا السَّماح، وقال: «لقد أنصفتنا، وزدْتَنَا عَلَى النَّصَف»..

ثم بعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى زيد، ولما جاء سأله: «هل تعرف هؤلاء»؟؟.

قال زيد: نعم، هذا أبى.. وهذا عَمِّى...

وأعاد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ماقاله لحارثة.. وهنا قال زيد:

« ما أنا بالذى أختار عليك أحدًا، أنت الأب، والعمّ»....!!

ونَدِيَتْ عينا رَسُول الله صلى الله عليه وسلم بدموع شاكرة وحانِية، ثم أمسك بيد زيد، وخرج به إلى فناء الكعبة، حيث قريش مجتمعة هناك، ونادى الرسول:

«اشهَدُوا أنَّ زَيْدًا ابنى.. يَرِثنِي وَأَرِثُهُ»...!!

وكاد قلب «حارثة» يطير من الفرح... فابْنُهُ لم يَعُدْ حُرًّا فحسب، بل وابنًا للرجل الذى تسميه قريش «الصادق الأمين» سليل بنى هاشم، وموضع حفاوة مكة كلها..

وعاد الأب والعم إلى قومهما، مطمئنين على ولدهما الذى تركاهُ سَيِّدًا فى مكة، آمنًا ومعافًى، بعد أن كان أبوه لا يدرى: أغالهُ السهلُ، أم غالَهُ الجبَل..!!

تبنَّى الرسول زيدًا... وصار لا يُعْرَف فى مكة كلها إلا باسمه هذا - «زيد بن محمد»...

وفى يوم باهر الشُّرُوق، نادى الوحى محمدًا:

﴿اقرأ باسم رَبِّك الذى خلَقَ ، خلَقَ الإنسان من عَلَق، اقرأ، ورَبُّك الأكْرَم، الذِى عَلَّم بالقلم، عَلَّم الإنسان ما لم يعلم﴾...

ثم تتابَعت نداءاتُه، وكلماته:

﴿يأيها المدَّثِّر، قُمْ فَأَنْذِرْ، ورَبكَ فكبِّرْ﴾...
﴿يأيها الرَّسُول بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ من رَبِّك، وإن لَمْ تَفْعَلْ فما بلّغتَ رِسَالته، والله يَعْصِمُكَ من الناس، إن الله لايهدِى القومَ الكافرين﴾...

وما إن حَمَل رسول الله صلى الله عليه وسلم تَبِعَة الرسالة حتى كان «زيد» ثانىَ المسلمين.. بل قيل إنهُ كان أوَّلَ المسلمين..!!!

* * *

أحَبَّهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم حُبًّا عظيمًا. وكان بهذا الحبِّ خَليقًا وجديرًا... فوفاؤه الذى لا نظير له، وعظمةُ روحه، وعِفة ضميره ولسانه ويده...

كل ذلك وأكثر من ذلك كان يَزِينُ خِصَال «زيد بن حارثة» أو «زيد الْحِبّ» كما كان يُلَقِّبُهُ أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام...

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها:

«ما بعثَ رسول الله صلى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ زيد بن حارثة فى جيش قط إلا أَمَّرهُ عليهم، ولو بقى حيًّا بعد الرسول لاسْتَخْلَفه»...

إلى هذا المدى كانت منزلة «زيد» عند رسول الله صلى الله عليه وسلم..

فمن «كان زيد هذا..؟؟

إنه - كما قلنا - ذلك الطفل الذى سُبِىَ، ثم بيع، ثم حرّره الرسول وأعتقه...

وإنه ذلك الرجل القصير، الأسمر، الأفطس الأنْف، بَيْد أنَّه أيضًا ذلك الإنسان الذى «قَلْبُه جميعٌ، ورُوحُه حُرّ»..

ومن ثَمَّ وجد له فى الإسلام، وفى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلى منزلة وأرفع مكان، فلا الإسلام ولا رسوله من يعبأ لحظة بجاه النسب، ولا بوجاهة المظهر.

ففى رحاب هذا الدين العظيم، يتألق «بلال» ويتألق «صهيب» ويتألق «عَمَّار» و«خبّاب» و«أسامة» و«زيد»..

يتألقون جميعًا كأبرار، وقادة...

لقد صحح الإسلام قيم الحياة حين قال كتابه الكريم:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾...

وفتحَ الأبواب والرِّحاب للمواهب الخيِّرَة، وللكفايات النظيفة، الأمينة، المعْطية..

وزوَّج رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدًا من ابنة عمته «زينب»،

ويبدو أن «زينب» رضى الله عنها قد قبلت هذا الزواج تحت وطأة حيائها أن ترفض شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ترغب بنفسها عن نفسه...

ولكن الحياة الزوجية أخذت تتعثر، وتستنفد عوامل بقائها، فانفصل زيد عن زينب.

وحملَ الرسول صلى الله عليه وسلم مسئوليته تجاهَ هذا الزواج الذى كان مسئولا عن إمضائه، والذى انتهى بالانفصال. فضمَّ

ابنة عمته إليه واختارها زوجة له، ثم اختار لزيد زوجة جديدة هى «أم كلثوم بنت عُقْبة»...

وذهب الشانئون يُرْجِفون فى المدينة: كيف يتزوَّج «محمد» مطلقة ابْنِه زيد؟؟

فأجابهم القرآن مفرقًا بين الأدعياء والأبناء.. بين التبنِّى والبنوَّة، ومقررًا إلغاء عادة التبنى، ومُعْلِنًا:

﴿ما كان محمدٌ أبَا أحدٍ مِنْ رِجالكم، ولكنْ رسولَ الله، وخاتَمَ النبيين﴾.

وهكذا عاد لزيد اسمه الأول: «زيد بن حارثة».

* * *

والآن...

هل ترون هذه القوات المسلمة الخارجة إلى معركة «الجموح»..

إن أميرها هو «زيد بن حارثة».

وهذه القوات الزاحفة إلى معارك «الطَرف»، و«الْعِيص»، و«حِسْمى»، وغيرها..

إن أميرها جميعًا، هو زيد بن حارثة...

فهو كما سمعنا السيدة عائشة رضى الله عنها تتحدث من قبل: «لم يبعثه النبى عليه الصلاة والسلام فى جيش قط، إلا جعله أمير هذا الجيش»..

حتى جاءت «غزوة مُؤْتة»..

كان الروم بإمبراطوريتهم الهرِمَة، قد بدءوا يوجسون من الإسلام خيفة... بل صاروا يرون فيه خطرًا يهدِّدُ وجودهم، لاسِيَّما فى بلاد الشام التى يستعمرونها، والتى تُتَاخِمُ بلاد هذا الدين الجديد، المنطلق فى عنفوان واكتساح...

وهكذا راحوا يتخذون من الشام نقطة وثوب على الجزيرة العربية، وبلاد الإسلام...

* * *

أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم هدفَ المُناوشات التى بدأها الروم ليَعْجُموا بها عود الإسلام، فقرر أن يُبَادرهم، وَيُقْنِعهم بتصميم الإسلام على المقاومة...

وهكذا..

وفى جُمادى الأولى من العام الثامن الهجرى خرج جيش

الإسلام إلى أرض «البَلْقَاء» بالشام، حتى إذا بلغوا تُخُومَها لقيتهم جيوش هرقل من الروم ومن القبائل المُسْتعربة التى كانت تقطن الحدود...

ونزل جيش الروم فى مكان يسمى «مَشارف»...

فى حين نزل جيش الإسلام بجوار بلدة تسمى «مُؤْتَة»، حيث سميت الغزوَة باسمها...

* * *

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرك أهمية هذه الغزوَة وخطَرَها فاختار لها ثلاثة من رُهْبان الليل، وفرسان النهار...

ثلاثة من الذين باعوا لله أنفسهم فلم يَعد لهم مطمع ولا أمنيَّة إلا فى استشهاد عظيم يُصَافحون إثره رضوان الله تعالى، ويُطالعون وجهه الكريم...

وكان هؤلاء الثلاثة وَفْقَ ترتيبهم فى إمارة الجيش هم:

* زيد بن حارثة.

* جعفر بن أبى طالب.

* عبد الله بن رَوَاحة.

رضى الله عنهم وأرضاهم، ورضى عن الصحابة أجمعين...

وهكذا رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وقف يُوَدِّع الجيش يُلقى أمره السالف:

«عليكم زيد بن حارثة...
فإن أُصِيبَ زيد، فجعفر بن أبي طالب،...
فإن أُصِيبَ جعفر، فعبد الله بن رَوَاحة»...

وعلى الرغم من أن «جعفر بن أبي طالب» كان من أقرب الناس إلى قلب ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم...

وعلى الرغم من شجاعته، وجسارته، وحَسَبه ونسَبه، فقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمير التالى لـ«زيد»، وجعل «زيدًا» الأمير الأول للجيش...

وبمثل هذا، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُقرر دومًا حقيقةَ أن الإسلام دين جديد جاء يُلْغى كل العلاقات الإنسانية الفاسدة، والقائمة على أسس من التمايز الفارغ الباطل، لينشئ مكانها علاقات جديدة، رشيدة، قوامها إنسانية الإنسان..!!

* * *

ولكأنما كان رسول الله عليه السلام يقرأُ غيب المعركة المقبلة

حين وضع أمراء الجيش على هذا الترتيب: زيد، فجعفر، فابن رواحة.. فقد لقوا ربهم جميعًا وفْقَ هذا الترتيب أيضًا..!!

ولم يكد المسلمون يطالعون جيش الروم الذى حزروه بمائتى ألف مقاتل حتى أذهلهم العدد الذى لم يكُن لهم فى حساب...

ولكن متى كانت معارك الإيمان معارك كثيرة..؟؟

هنالك أقدموا ولم يُبَالُوا... وأمامهم قائدهم «زيد» حاملاً راية رسول الله صلى الله عليه وسلم، مُقْتحمًا رماح العدو ونبالَه وسيوفه، لا يبحث عن النصر ، بقدر ما يبحث عن المَضْجَع الذى ترسُو عنده صفقته مع الله الذى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالَهم بأن لهم الجنة.

لم يكن «زيد» يرى حواليه رمال البلقاء، ولا جيوش الروم بل كانت روابى الجنة، وَرَفْرَفها الْخُضْر، تخفق أمام عينيه كالأعلام، تُنْبِئُه أن اليوم يومُ زِفَافِه...

وكان وهو يضرب، ويقاتل، لا يُطَوِّح رءوس مقاتليه، إنما يفتحُ الأبواب، ويفضُّ الأغلاق التى تحول بينه وبين الباب الكبير الواسع، الذى سَيُدْلِفُ منه إلى دار السلام، وجنات الخلد، وجوار الله..

وعانق «زيد» مصيره...

وكانت روحه وهى فى طريقها إلى الجنة تبتسم محبورة وهى تبصر جثمان صاحبها، لا يلفه الحرير الناعم، بل يُضَمِّخه دم طهور سال فى سبيل الله...

ثم تتسع ابتسامتها المطمئنة الهانئة، وهى تبصر ثانى الأمراء «جعفرا» يندفع كالسهم صَوْب الراية ليَتسلمها، وليحملها قبل أن تغيب فى التراب..